التشريح والفزيولوجيا

كان من نهضة قدماء المصريين في سائر الفنون العلمية والعقلية والأدبية النفسية أن الملوك والرؤساء لا تمنعهم عظمة الملك ولا سمو المنزلة عن صرف قواهم ،وكل ما أوتوا من حول وطول في طلب المزيد من السجايا الفاضلة والمزايا العرفانية. فكل ما علموا بأثر علمي جديد أو بحث عقلي مفيد حسبوا أنفسهم في طلبة المتشوقين إليه ليبثوا في نفوس الشعب روح التسابق إلى ميادين المفاخر العلمية التي يقوي الملك ويعتز الشعب فخلدوا لهم في صحف الأكوان أنقى أثر وأطيب ثناء.

ومما أورده المؤرخ المصري القديم الشهير ما نيتون وأيده بلين وأولى جيل (Aule Gelle) أم ملوك الأسرة الأولى وجهوا عنايتهم إلى عمليات التشريح وطرق استعمالها والإمعان والتفنن فيها رغبة في الاستكشافات الطبية الدقيقة، وترويجا لقواعد التحنيط وغرس احترامه في النفوس منعا للاستمرار في مقاومة وإيذاء المشتغلين به، ويستدل بذلك على أن فتح الجثث المحنطة لم يكن مما يعد جرأة على الأنانية أو جريمة يعاقب عليها فافعلوها لكونها وسيلة للوجهة العلمية من جهة وقياما بواجب التعظيم لمن يكون تحنيط أجسامهم على سبيل التكريم وحسن الذكرى من جهة أخرى وكثير من حوادث التحنيط تشير إلى اتخاذه في عهد مض عليه أكثر من ٥٠٠٠ سنة.

وقد استدلوا ببعض المباحث المسطوة في ورقة برلين البردية الطبية على فصول خاصة بوظيفة القلب بين الأعضاء، وأنه المسيطر في صرف الدم إلى شرياناتها. ومنها عرفوا أن في الدم نسمة خفية تنبعث عنها حياة الأجسام وتوليد الهواء في الرئتين ويتنشقه القلب بالتنفس، ومنه تتوزع تدريجيا للشرايين ممتزجة بكرات الدم ولباقي الأعضاء. فكأن هذه النسمة التي ذكرها قدماء المصريين في مؤلفاتهم هي ما سماه

الطب الحديث الأكسوجين تطبيقا لنظريتهم لأولى الفزيولوجيا وتأثيرات الهواء في الدورة الدموية. فهم أسبق منافي كل ما وصل طبهم إليه من القواعد الصحية لحفظ الأجسام ودفع العاهات عنها. وكل فرد في الوجود مكلف بحفظ كيان ذاته باتخاذ ما ذكر بعناية ونظام ودقة أشعاف ما يطلبه مالك الأرض لحسن نباتها وخصوبة أرضها ووقايتها من سائر الآفات الجوية وغيرها.

وتوصل أيضا قدماء المصريين إلى تقدير مرور الدورة الدموية بالثواني في الشرايين والأوردة. وترجم من ورقة إبرس الطبية ما يؤيد نبوغهم في هذا البحث الجليل وما اتخذوه بناء عليه في تقاريرهم العلمية للتوقي من العدوة، لأن أوعية الجسم باستعدادها تسرع في تلقى الجراثيم وفي انتشارها أن لم تستدرك في أوائل الأمر بالمقاومات المانعة لإخطارها، وفيها أيضا بيانات وافية تثبت أن الكبد هو معمل الصفراء، وإن عوارضها تشاهد عند البحث في تحليل البراز وترشد إلى تحديد المرض بكونه ناشئا عن الصفراء أو عن عوارض في الكبد.

وحاشا أن تكون علومهم قاصرة على النذر اليسير المدون في الأوراق البردية التي عثر على بعضها، وعلمنا من بعض محتوياتها مقدار مواهبهم وسعة أحاطتهم العرفانية إذ لا يعقل أن تكون علومهم ومؤلفاتهم قاصرة على ما في هذه الصحف فقط بدليل أنها شذرات مما أبقت الدهور في جدران ومبان تقادم عهدها ولم تحو من آثارهم وبراعتهم إلا جانبا مما دثرته الأرض تحت بطون الأجيال، بدليل أن المعلومات الجزئية التي جادت الحوادث بظهور بعضها على أيدي الباحثين كانت في فنون متنوعة تنبئ عن سعة كبرى وتضلع مزيد، لا انها خاصة بموضوع معين تتلاقى عند نقطة محدودة فيتخذ الجاحدون ذلك كمهاد للقول عنهم بما تصور للجاحدين جهالتهم فجهل الذاهبين إلى هذا الزعم لا يزيد وزنا عن انكار الأعمى للشمس في ضحاها.